سامي سويدان

المثقّف العربي: من الطليعة إلى الفجيعة(*)

لا تكشف مداخلات أدونيس أو مساهماته التوضيحية عن فكر يعتمد المفارقة والتزييف لتبرير التخاذل والانهزام وترويج التبعية في المنطقة العربية وحسب، بل تنضح كذلك ببعض المفاهيم المغلوطة. إن تفحّص هذه المفاهيم يوضح ما تؤدّيه من دور خطير في تحوير الطروحات المتداولة وتشويه النتائج التي يمكن أن تبلغها، بقدر ما يفضح حقيقة فكرويةِ صاحبها والقيم والمعايير الفعلية التي يستند إليها ويروّج لها، بالرّغم من الظاهر التقدّمي والعقلاني لبعض الشعارات الخلبية التي يردّدها. ولعلّ في التوقّف عند مفهومين أَكْثَرَ من تكرارهما في توضيحه الأخير(٥٥) («اليهودي» و«الآخر») ما يعطي صورة عن هذا النمط من التفكير وهذا النهج في السجال.

أ ــ بصدد «اليهودي»

في مختلف البيانات والتصريحات التي أخذت على أدونيس لقاءاته بالإسرائيليين لم يُشِرْ أيٌّ منها إلى هؤلاء كيهود، كما لم يعتبر أيٌّ منها اليهوديَّ عدواً، وإنما كان يجري التركيزُ فيها على الكيان الصهيوني أو الحركة الصهيونية العنصرية كعدو؛ بل إنّ بعضها ـ كما هو حال التصريح التوضيحي للأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب «حول ردود الفعل نحو لقاء غرناطة ودعوة الشاعر أدونيس للمشاركة في جرش»(٥٦) ـ يعود إلى النظام الأساسي لهذا الاتحاد وميثاق الشرف الذي أقرّه مؤتمرُهُ الثامن عشر في عمّان سنة ١٩٩٢ بما لا يدع أي مجال للبس حول هذا الموضوع. فمن الأهداف الكبرى التي يؤكد نظامُ الاتحاد تمسُّكه بها «محاربة الحركات العنصرية، وعلى رأسها الصهيونية، ومقاومة كل الدعوات للتعايش مع الكيان الصهيوني أو الاعتراف به»(٥٧). ومع ذلك فإنّ أدونيس يعلن في توضيحه أنّ المعارضين لـ«التطبيع الثقافي» مع الكيان الصهيوني يقصرون معارضتهم على «العلاقات والاجتماعات بين كاتب عربي وكاتب **يهودي**» في الوقت الذي يسكتون فيه «على جميع أنواع التطبيع الأخرى» ويقبلون «كل الجوانب الأخرى» التي يشتمل عليها البُعد الثقافي من إعلام واقتصاد وتقنية وسياحة! كما يعلن أنّ موقف بعض الكتاب العرب الناقد للقاءاته بإسرائيليين (كما في روتردام وغرناطة) مطابقٌ أو مماثل لموقف بعض الكتاب الإسرائيليين المتعصبين: «تكون من الجهة العربية متهماً بمصادقة **اليهود** والسلام معهم، وتكون من الجهة الإسرائيلية متهماً بمعاداة **اليهود** ومعاداة السلام!»(٥٨). ولكن إذا كان من الصعب مع غياب

(*) هذا هو الجزء الثاني من مقالة د. سويدان التي نشرنا قسمها الأوّل في العدد الماضي. ولقد كان من حقّ هذا الجزء أن يُنشر ـ هو والقسم الأوّل منه ـ في العدد الحادي عشر والثاني عشر من العام الماضي، لولا أنّنا كنّا قد قرّرنا منذ زمن أن نخصّص العددَ المذكور والعددَ الذي يليه للأدب العراقي تحت الحصار، وللأدب المغربي، على التوالي (**الآداب**).

(٥٥) أدونيس: «حول قضايانا الراهنة»، **الآداب**، العدد ١٠، ١٩٩٤.

(٥٦) راجع الهامش رقم ٣٨ من مقالتي في العدد السابق من **الآداب**.

(٥٧) المرجع السابق. ولا يخرج ميثاق المثقفين العرب الذي أقرّه المؤتمر الثامن عشر للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب في عمان عام ١٩٩٢ عن هذا الإطار. فقد جاء في فقرته الأولى: «الصراع العربي الصهيوني صراع وجود مع وجود، ولم يكن يوماً ولن يكون أبداً نزاعاً على حدود، بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم. ويتحدّد موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية والثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه. وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني وكيانه في فلسطين المحتلة، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه والمروّجين له».

(٥٨) أدونيس: «حول قضايانا الراهنة»، ذكر سابقاً، ص ٤٤ والتشديد من قبلي.

المعلومات الدقيقة الجزم بحقيقة الاتهام الإسرائيلي[٥٩]، فإنّ المعلومات المتوفّرة عن «الجهة العربية» تنفي ورود مثل هذا الاتهام، وتجعل ادّعاءَ أدونيس تزييفاً للوقائع. فهو في إحلاله «اليهودي» محلّ «الصهيوني» ينسب إلى منتقديه كلاماً لم يقولوه؛ فلا يزوّر مواقفهم وحسب بل يشوّه كذلك الخلفية الفكرية والثقافية التي تصدر عنها: فالعداء للصهيونية ومحاربتها كحركة عنصرية يشكّلان قاعدة رفض «التطبيع الثقافي» مع إسرائيل، كما هو بيّنٌ في تصريح الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب المشار إليه أعلاه؛ واعتبارُ الصهيونية حركةً عنصرية وإسرائيل كياناً صهيونياً استيطانياً هو في أساس نظرة العديد من القوى الطليعية في الحركة الوطنية والقومية التحررية الفلسطينية والعربية، وشكّل أحد أوجه رؤية الحركات اليسارية والثورية فيهما الداعية إلى دولة ديموقراطية في فلسطين بغضّ النظر عن الانتماءات الدينية لمواطنيها... وهو طرح استقطب دعم كثرة من التنظيمات والشخصيات التقدمية في العالم حيث لم تعدم مشاركة «يهود» فيها. إن هذا الطرح التقدمي ـ الذي يميّز بين الصهيونية كحركة سياسية عنصرية لا تقتصر على اليهود وحدهم، وبين اليهودية كانتماء ديني لا يتضمّن بالضرورة التزاماً بالصهيونية أو تأييداً لها، بل لا يستبعد معارضتها وحتى مقاومتها ـ مختلفٌ تماماً عن ذلك الطرح الرجعي الذي يماهي بين الصهيونية واليهودية والذي يتردّد في أوساط دينية سلفية وتنظيمات قومية ذات نزعات فاشية ويمينية طاغية.

هكذا يخلط أدونيس بين «الصهيوني» و«اليهودي» ويُحلّ الأخيرَ مكان الأول ـ وهو خلط لا يتّفق مع ما يرد في توضيحه نفسه من ذكر لـ «جاليات يهودية عربية»[٦٠] ـ؛ فينمّ بذلك عن فكروية رجعية ذات سمات عنصرية دينية بالرغم من ادعاءاته التقدمية والديمقراطية. وهي فكروية تتماثل إلى حد كبير مع الفكروية الصهيونية العنصرية. ولعل في كلمته في غرناطة، وقد جاءت مضمخة بالرؤية الدينية، ما يؤيّد ذلك. على هذا الأساس لم يكن موقف الكتّاب العرب المنتقدين لقاءاته بالإسرائيليين مماثلاً لموقف بعض الإسرائيليين المتعصّبين، بل إن موقف أدونيس نفسه هو المماثل لموقف هؤلاء الأخيرين. ولا يقتصر ذلك على اعتماد مفاهيم واحدة بل يمتد إلى الأوجه الإجرائية لاستعمالها بما يتّفق والمنظور الصهيوني. فأدونيس يقيم توازياً بين شعب عربي «ونظامه السياسي» من جهة، و«بين اليهود والنظام الإسرائيلي» من جهة ثانية[٦١]... الأمر الذي يفترض أن اليهود هنا مثل الشعب العربي هناك، أي أنهم شعب الدولة الإسرائيلية أينما كانوا، وليسوا حيث هم جزءاً من شعب روسيّ أو أوكرانيّ أو يمنيّ... وهذه هي إحدى المقولات الأساسية التي تعتمدها الحركةُ الصهيونية لربط يهود العالم بإسرائيل ولإقامة شبكة عالمية عنصرية لدعمها وتأييدها[٦٢]. ولا يكتفي أدونيس بالأخذ بها، بل يبني عليها جملةً من الاستنتاجات التي لا تبرر فقط لقاءاته بصهاينة إسرائيليين وإنما ترسي كذلك قواعد الانتهاك لأي معيار قيمي ثقافي أو سياسي أو حتى أخلاقي، وتوطّد المنطق الشائع لدى بعض المثقفين. فانطلاقاً من لاإمكانيّة التماهي بين شعب ونظامه السياسي، وبالأحرى بين كتّاب ومبدعين ونظامهم السياسي، يتوصّل أدونيس إلى طرح إمكانية الحوار «بين المثقّفين، مهما كانت اتجاهاتهم وانتماءاتهم الفكرية متباينة»[٦٣]. فبني على مقدمات صحيحة مبدئياً آراء ليتوصل إلى استنتاجات مغلوطة.

نكتفي بالإلماع إلى أن أدونيس ينتقل من عدم التماهي بين شعب ونظامه السياسي إلى القول «من باب أولى» بعدم التماهي بين «الكتّاب والمفكرين والمبدعين ونظامهم»؛ وفي هذا الانتقال تحوّل من الشعب كمفهوم كلي شامل إلى الكتاب والمبدعين كفئة محددة من هذا الشعب. إلا أن هذه الفئة ليست متجانسة على الإطلاق، وهي تعرف على الأقل في ما يتعلق بالنظام السياسي تمييزاً إجمالياً بين أولئك الذين يساندون هذا النظام وأولئك الذين يعارضونه ويعملون على تغييره. وعندما يطرح أدونيس إمكان الحوار مع المثقفين «مهما كانت اتجاهاتهم» فإنه يطمس تماماً هذا التمييز الأساسي، لا ليبرّر فقط لقاءه بصهاينة إسرائيليين لا يعيدون النظر بالكيان الإسرائيلي والحركة الصهيونية ويعملون على خدمة أهدافهما، بل ليبرّر كذلك لقاء أيّ مثقّف بآخر مهما كان انتماء كل منهما ومواقفه السياسية... وحتى في النهاية لقاء أيٍّ كان بأيٍّ كان! معنى ذلك أن يكون مقبولاً ـ إن لم يكن مطلوباً ـ أن يجلس مثقّف عربيّ (لبنانيّ أو فلسطينيّ...) مع صهيونيّ إسرائيليّ (كاتب أو مفكّر..) خرج لتوّه من مفاعل ديمونة الذّريّ أو عاد مباشرة من الخدمة العسكرية مساهماً في قصف المدنيين والمقاومين في جنوب لبنان أو في إطلاق النار على شبّان

---

(٥٩) وإن كان بعض المعلومات يشير، على العكس مما يدّعيه أدونيس، إلى ترحيب بمثل هذه اللقاءات (راجع الهامش ٤٦ في العدد السابق من **الآداب**).

(٦٠) أدونيس: «حول قضايانا الراهنة»، ذكر سابقاً، ص ٥.

(٦١) «أظنّ أنّنا لا نجد مثقّفاً عربياً حقيقياً يقيم تماهياً بين شعبه ونظامه السياسي. لذلك افترض أن المثقّف لا يمكن أن يقيم بين اليهود والنظام الإسرائيلي تماهياً» المرجع السابق، ص ٤.

(٦٢) هذا ما يشير أدونيس إلى بعضه حين يذكر استمرار التوكيد الإسرائيلي «على حقّ كل يهودي بالاستيطان في فلسطين» المرجع نفسه، ص ٥.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٤؛ وعليه تحيل أرقام الصفحات المثبتة في المتن بخصوص أي استشهاد لاحق بكلام لأدونيس.

الانتفاضة العزّل في فلسطين، ويتداولان قراءة قصائد بالعبرية التي لا يفهمها الأول وبالعربية التي لا يحسنها الثاني، أو يتحاوران حول الزواج المختلط والتعليم المفتوح... وهو أمر مختلف تماماً عن عدم مماهاة الشعب مع النظام السياسي، أو الكتّاب والفنّانين مع هذا النظام.

بل يمضي أدونيس إلى ما هو أبعد من ذلك ومكمل له في آن: وهو تمويه الصراع العربي ـ الإسرائيلي وطمسه في عملية تغدو عبرها اللقاءات والحوارات بين العرب والإسرائيليين ـ وبخاصة المثقفين منهم جميعاً «مهما كانت اتجاهاتهم» ـ ممكنة بل وممارسة عبر «طليعة» يحاول أدونيس أن يجد لنفسه مكاناً في «مقدمتها» وإن كانت ملحقة وتابعة لأشد القوى ارتهاناً للإمبريالية الأميركية. لا أعرف ما يقصد أدونيس بـ «المثقف العربي الحقيقي»، لكني أعتقد أن من صفات ومهمات المثقف، عربياً كان أو أعجمياً، أن يوضح القضايا المطروحة على شعبه، وأن يعمّق المسائل التي يتصدّى لها، وأن يدافع بخاصة عن المصالح العامة والبعيدة المدى لهذا الشعب وأن ينتصر دائماً للحرية والعدل والوعي والمعرفة. وكان الأجدر بأدونيس أن يواجه المسائل المطروحة فيردّ على منتقديه إما بالقول إنّ لقاءاته مع الإسرائيليين كانت مع **معارضين** للحركة الصهيونية وللكيان الاستيطاني وبالتالي لا يكون انتقادهم له في محله؛ وإما بالقول إنّ لقاءاته المذكورة كانت مع أعضاء مسؤولين في هذه الحركة الصهيونية وموالين لها وبالتالي يكون انتقادهم له مناسباً وصحيحاً

الأطراف التي انتقدتْ أدونيس للقاءاته مع الإسرائيليين ليست من دعاة الانعزال عن «الآخر»!

ويفترض به بناءً لذلك أن يدافع عن موقفه الفعلي فيعلن حيثيات هذه اللقاءات وموضوعاتها ليبين في النهاية جدواها وفعاليتها ثقافياً، فربما أقنع منتقديه برأيه وتمكن من تكوين أغلبية تعدل الأنظمة والمواثيق التي يستند إليها البعض في اتهامه وإدانته(٦٤).

ب ــ بصدد «الآخر»

لا يقلّ استعمال أدونيس لمفهوم «الآخر» عن استعماله لمفهوم «اليهودي» تلاعباً وتمويهاً. فهو ينقل السجال مع خصومه إلى ساحة بعيدة عن موضوعه، ليدخله في متاهات من الضبابية تتيح له تلافي المجابهة وطمس القضايا المحددة التي يتناولها. فهو يذكر أن: «في أساس نشاطي الفكري في أوروبا والعالم أن أعطي للثقافة العربية وجهاً إنسانياً محاوراً، منفتحاً على **الآخر**». ويعتبر ذلك ملحّاً لأن الصورة التي تُعطى لهذه الثقافة «صورة كريهة تُخيّل للغربيّ أن ثقافتنا ضد الحرية وضد الإنسان وضد الفكر، وضد **الآخر**»؛ وهذا ما يفسّر حرصه الدائم على حضور مؤتمرات يتمكّن فيها من إبراز «الوجه الحضاري المضيء للثقافة العربية» كما كان أمره في مؤتمر غرناطة ومهرجان روتردام (ص٣، والتشديد من قبلي هنا، وفي جميع الاقتباسات لاحقاً).

من المعروف أن الأطراف التي انتقدت أدونيس للقاءاته الإسرائيلية ليست من دعاة التقوقع والانعزال عن «الآخر»، وليست ضد الحرية والإنسان والفكر، وإنما، على العكس تماماً، باسم هذه جميعاً تناهض الصهيونية وكيانها العنصري وتدعو إلى عدم الاعتراف به ومقاطعته. ومن المعروف أن الوجه الإنساني المحاوِر للثقافة العربية لا يُعطى من خارجها بقدر ما يتجسّد في داخلها، بقدر ما يتمثّل في إنتاجها المتعدّد الأوجه. ولا تعدل اللقاءات بـ«الآخر» على الرغم من أهميتها الإعلامية شيئاً يذكر من الأبعاد الحضارية الإنسانية القائمة في صلب هذا الإنتاج. أما إذا تمخّض الحرصُ على إبراز «الوجه المضيء للثقافة العربية» عن الحضور كمشترك وحيد غير إسرائيلي في أمسية لقراءات شعرية إسرائيلية والإنصات إلى هذه القراءة أربع ساعات دون فهم الكثير منها ثم إلقاء قصيدة بالعربية(٦٥)، فإن الأمر يصبح مأساوياً... إذ يتبدّى الحوارُ مع «الآخر» والانفتاح عليه لقاءً مع الإسرائيلي ومشاركة له في نشاطات لا تعيد النظر بالكيان الصهيوني العنصري الذي ينتمي إليه بل تكرّس الاعتراف به وتظهر سياسته العدوانية مقبولة أو على الأقل عادية «طبيعية»، ويتبدّى ـ بالمقابل وبناء لذلك ـ أنّ العداء للصهيونية وكيانها العنصري ليس عداء «للآخر» وحسب بل عداء للحرية والإنسان والفكر!

لعلّ هذا ما يجري التأكيد عليه في ما يلي من «خواطر». فأدونيس يعلن أن «من طبيعة العمل الثقافي، إن كان إنسانياً وخلاّقاً، أن يكون **الآخر دون تمييز**، هماً أولياً من همومه: يحاوره، وينقل إليه كشوفه ونظراته إلى الإنسان والعالم» (ص٤). وهكذا يساوي أدونيس تحت مفهوم «الآخر» الصديقَ بالعدوّ «دون تمييز» في تصوّر للعمل الثقافي يبدو أن دوره لا يتعدّى دحض الدعوة إلى رفض «التطبيع الثقافي». وعلى العكس من ذلك يجعل الحوار الثقافي مع الإسرائيلي العنصري المحتل للأرض والمعتدي على الشعب من أوّليات اهتمامات هذا العمل. ولا يلبث هذا الطرح أن يتوضّح لاحقاً حين يؤكد أدونيس أن الحوار «ليس تماهياً مع **الآخر**»، قبل أن يسارع إلى اعتبار خطر ذوبان الثقافة العربية في ثقافة أقلية وهماً وأن مسوّغات الخوف موجودة في

---

(٦٤) راجع تصريح فخري قعوار في **النهار** ١٩٩٤/٤/١٢: «الموقف من أدونيس الذي يشارك»، والهامش رقم ٣٨ من مقالتي في العدد السابق من **الآداب**.

(٦٥) راجع الهامش رقم ٤٧ من مقالتي في العدد السابق من **الآداب**.

«الطرف الآخر» أي الإسرائيلي (ص٥). على هذا النحو يتم التحوير في مقاربة المسائل المطروحة: فإذا بمقولة الانفتاح والحوار مع «الآخر» تتحوّل بمنطق تعسّفي إلى انفتاح وحوار مع الصهيوني باعتبارهما من طبيعة العمل الثقافي، لتصبح مقاطعة هذا الصهيوني أو رفض «التطبيع الثقافي» معه أمراً غير طبيعي! ييسّر مثل هذا التزييف استعمال مفاهيم مطلقة وفضفاضة الدلالة. فالواقع والسجال لا علاقة لهما بـ «الآخر» أبداً. وهذا الآخر على كل حال ليس مطلقاً ولا واحداً ولا العلاقة به مطلقة أو ثابتة: فهناك آخرون إذا أمكن الإشارة إليهم بأصدقاء وأعداء فمن زاوية الصراعات التي يخوضها العرب من أجل تحرّرهم وتطوّرهم؛ هناك أنصار للحركات التحررية والديمقراطية وهناك أعداء لها؛ هناك شروط تاريخية واجتماعية تتمّ فيها هذه الصراعات وتحدّد مدى التقارب والتباعد والتضامن والتناحر بين قوى التحرر وقوى القهر والقمع. وليست الثقافة بمعزل عن ذلك، بل إنها أحياناً ذات دور رئيس وحاسم(٦٦). لذلك لا يمكن الأخذ بهذا التلاعب القائل «بطبيعة» مطلقة للعمل الثقافي وكيان غير محدّد «للآخر» ودعوة لمحاورته والتعاون معه «دون تمييز»... ولا يكون ذلك كله إلا تغطية وتمويهاً للدعوة إلى الاعتراف بالكيان الصهيوني والتعامل معه كأي دولة أخرى في العالم، ولممارسة ذلك عملياً. فلا أعتقد أن عاقلاً، ناهيك بمثقف و«حقيقي»، يقبل بالجلوس مع نازيّ مدجّج بالسلاح والإرهاب والبطش، ناهيك بالمشاركة في أمسياته الشعرية... إن لغة التعامل مع العدو المحتل ليست هي ذاتها التي

لا مانع من ندوة تلفزيونية أو صحافية بين مثقفين عرب وصهاينة... شرط ألاّ يُطمس الصراع، وشرط أن تستفيد حركة التحرر العربية من مثل هذه الحوارات!

تُعتمد مع الصديق المتعاون، عدا عن أن صيغ «الحوار» متعدّدة. فهو وإن كان يفترض قيامه في هذه الحالة بين قوى مناوئة للعنصرية الصهيونية لا يمكن أن يجري بصيغ القبول بها والسلم والتعاون معها. قد لا يُستبعد لقاء مثل ندوة تلفزيونية أو صحافية بين مثقفين عرب وصهاينة تتناول موضوعات الاحتلال والعدوان وحقوق الإنسان في فلسطين والأراضي العربية المحتلة، بناء لما يكون بمقدور مثل هذه الندوات أن تحقّقه من توضيح وجهة النظر العربية التقدمية وبلوغها أوسع جمهور ممكن. إن المهم في ذلك كله، بل شرطه الأساسي، ألا يطمس الصراع الحقيقي بين حركة صهيونية عنصرية استيطانية وحركة تحرّر عربية، بل يحدد إطاره بوضوح على أنه يتم بين أعداء متناحرين، كما يحدد موضوعه على أنه يتعلق بالمواجهة بين الاحتلال والتمييز والقهر من جهة وبين التحرير والديمقراطية والعدل من جهة ثانية. وليس مهماً الانتماء الديني للأطراف المتحاورة أو المتجابهة بقدر ما هو مهم موقفُها من الظلم والقمع والتمييز العنصري. ويمكن في هذا المجال أن يلتقي بوذيّون ويهود ومسلمون ومسيحيون وملحدون. والمعيار النهائي هو مقدار ما تفيده حركةُ التحرر والديمقراطية في المنطقة العربية مِن هذه الحوارات واللقاءات. أما أن يجري التلاعب بالمفاهيم ـ فينطلق من اللاتماهي بين «اليهود» والنظام الإسرائيلي لتبرير اللقاء بالصهاينة، وفي اللاتماهي في الحوار بين الذات و«الآخر» للحض على مثل هذا اللقاء ـ فذلك من التضليل.

بين الترويج والمقاطعة: الموقع والدّور

ترتبط بذلك الخلطِ المفهومي واستعمالاته الإجرائية جملةٌ من التحويرات والإطلاقات لا تلبث أن تتكشّف أغراضها وغاياتها. فعلى الرغم من تأكيد أدونيس أنه يميل إلى السلام «من حيث المبدأ» وأنه غير معنيّ «بالمستوى السياسي» وإنما «بالمستوى المبدئي» وأنه «مع السلام شرط العدل وضمان الحريات [وأنّ] كل سلام بدون هذا الشرط سلام مؤقت» (ص٥)، فإنه لا يقوم بغير التمويه لتمرير موقفه المؤيد لـ«اتفاق أوسلو» دون اكتراث بمدى تناقضه مع ادّعاءاته المبدئية. إذ ليست المسألة المطروحة مبدئية السلام أو الحرب، وإنما هذا «السلام» الذي يتمثّل في «اتفاق أوسلو» وواقع الحرب التي لم يكف الكيان الصهيوني عن شنّها على العرب. لكن أدونيس لا يرى الحرب على هذا النحو بل يراها على العكس حرباً يشنّها العرب «على إسرائيل» (ص٤)، حرباً لم تحصد غير دمارهم المتواصل، متبنّياً بذلك ضمنياً وجهة نظر الصهيوني الذي يقدّم نفسَه بصورة المُعْتَدى عليه ويسمّي جيشه المحتلّ للأراضي العربية «جيش دفاع»، ساعياً من خلال ذلك كله إلى تحطيم إرادة المقاومة والتهويل من كلفتها والتيئيس من جدواها، بما يكرّس اغتصابه للأرض وتثبيت سيطرته في المنطقة على المدى البعيد.

هذا ما بدأ الكيان الصهيوني تحقيقه منذ «اتفاقيات كمب ديڤيد» سنة ١٩٧٩ مع مصر، وما يتابعه منذ «اتفاق أوسلو» عام ١٩٩٣ مع منظمة التحرير الفلسطينية، بانتظار استكماله مع بقية الأطراف العربية. وهذا ما يأخذ به أدونيس ويدعو إليه حين يطلب من أولئك الذين يرعبهم «السلام مع إسرائيل (...) أن يستيقظوا ويتساءلوا عن مغزى حرب يحشد العربُ لها كلَّ قدراتهم ولا يحصدون غير دمارهم المتواصل» (ص٤)... في حين لا يُعتقد أن أدونيس جاهل أن الحرب قد فُرضتْ على العرب، وأنهم لا يخوضونها إلا رداً للاعتداء عليهم وعلى أراضيهم، وأنهم مع ذلك، وبسبب أنظمة حكمهم، لا يحشدون لها غير اليسير من قدراتهم، وهو على كل حال دون ما

(٦٦) راجع سمير أمين: **أزمة المجتمع العربي** (القاهرة: دار المستقبل العربي؛ الطبعة الأولى ١٩٨٥)، ص ٧١ ـ ٧٢.

تحشد هذه الأنظمة لقمع شعوبها وللنزاعات في ما بينها، وأنهم على الرغم من الهزائم التي لحقت بهم لا يمكن حصر نتائج الحرب بها أو «بدمارهم المتواصل» بقدر ما عبّرت هذه الحرب عن إرادة الأمة العربية في النضال للتحرير ومجابهة الصهيونية والقوى الاستعمارية الداعمة لها. على أن الدمار الأعظم والأخطر يتمثّل في اندحار هذه الإرادة والخضوع للاحتلال والهيمنة الامبريالية والقبول بنتائجها التي تتّخذ اليوم صيغة الاستسلام أو «السلام». لعل هذا الدمار هو الذي يتواصل اليوم، وليس أولئك الذين يرفضونه وينبّهون إليه بالغافلين، ولا تأتي دعوتهم إلى «الاستيقاظ» التي هي في الحقيقة دعوة إلى الرقاد أو الانقياد إلا من متغافل، أو من متواطئ في تدميرهم ومُساهمٍ في دفعه وتعجيله.

يبدو هذا التواطؤ جلياً في الترويج لهذا الاستسلام ـ «السلام» المذكور. فأدونيس يعترف أن «السلام الذي حقّقته الاتفاقات المبرمة ـ حتى الآن ـ لا يزال سلاماً بين أنظمة، وهو لذلك سلام قابل للانهيار»؛ وأنه «لا يرقى إلى المستوى الذي كنا ننتظره، والذي تفترضه حقوق الإنسان» (ص٥). وبدل أن يكون الاستنتاج إدانة لهذا «السلام» وإدانة للأطراف التي تمليه وبحثاً عن سلام الشعوب وحقوق الإنسان، يسارع أدونيس إلى استبعاد الحرب في سبيل ذلك مكمّلاً ما كان قد ذكره بشأنها. فحسب رأيه «لا تجيء هذه الحقوق من أنقاض الحروب» (ص٥)، وتكون النتيجة القبول بهذا «السلام» على علاّته: «أفضّل سلاماً ناقصاً، على حرب توجهها وتهيمن عليها أصولياتٌ تؤوّل الدينَ تأويلاً بعيداً عن حقيقته، ولا يمكن في الوقت نفسه إلا أن تكون حرباً خاسرة على جميع المستويات» (ص٤).. بينما احتمالات ربح العرب من هذا «السلام» قائمة، فقد تتيح لهم «أن يتعرفوا بمزيد من العمق على نفوسهم وقدراتهم، وربما أتاح لهم أن يفجّروا طاقات أخرى خلاّقة كانت مكبوتة فيهم أو مغيّبة» (ص٥).

هكذا يسفر أدونيس عن حقيقة موقفه من «السلام» المطروح ـ سلام الأنظمة ـ في تأييد صريح له وإدانة لتيار قوي ومناوئ له يرفض الاستسلام ويصرّ على مقاومة المحتل، وهو تيارٌ أصولي الطابع. بيد أن أصولية هذا التيار على الرغم مما يثيره لدى الفئات المتحررة من مخاوف، ومما يشكّله تناميه من مخاطر جسيمة على حركة التقدم والديمقراطية في البلاد العربية ـ لعل عمليات اغتيال المثقفين المعارضين له التي قام بها ومايزال يمارسها المنتسبون إلى بعض فصائله أبرزُ مثال على إرهابيته وظلاميته ـ لا تفقده حقّه في المقاومة والتحرير. ولا يصح إطلاق القول بأن حربه خاسرة على جميع المستويات، وبخاصة حين تُلحظ الإنجازاتُ العسكرية التي يحقّقها ضد الجيش الصهيوني والتطويح بأسطورية تفوّقه وفضح تهاون الأنظمة العربية التي هُزمت جيوشها إزاءه وتخاذل القوى الوطنية كمنظمة التحرير الفلسطينية التي التحقت بها.

ليس «السلام» الذي يفضّله أدونيس هبة «دولية»، وإنما هو قبل أي شيء آخر نتيجة الحرب «ومن أنقاضها»، نتيجة انتصار إسرائيل وحلفائها وهزيمة الفلسطينيين والعرب فيها. ولا أعتقد أن الأصولية كانت غائبة يوماً عن الحركة الصهيونية ذات التاريخ الحافل

لا يمكن أن يكون المثقف الواعي ضد الأصولية الإسلامية في مواجهتها للعدوان الصهيوني، وإن كان ضدّها في تعصّبها وقمعها!

بالمجازر والاغتيالات والاجتياحات البربرية والمستمر حتى اليوم احتلالاً راهناً واعتداءات مستمرّة وإرهاباً دائماً. و«السلام» الذي يقبل به أدونيس هو بالتحديد سلام هذه الحركة الذي تحاول أن تبنيه اليوم على أنقاض الهزائم العربية التي حققها تفوّقُها العسكري المدعوم والمضمون من قِبل الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها قبل أي شيء آخر. إن الأصولية، التي يفرّ منها أدونيس ويهوّل بالنتائج القادمة التي تأتي بها هيمنتُها على محاربة إسرائيل، ظاهرةٌ فكرويةٌ ذات جذور تاريخية ومرتبطة بتطوّر شروط اجتماعية، لعل أوضاع المجتمعات العربية المتخلفة والتابعة في سيرورة انخراطها في العلاقات الرأسمالية العالمية تشكّل القاعدة الأمتن لوجودها وفعاليتها. إلا أن وصول هذه الأوضاع إلى مستوى من الزراية والانحطاط والتهالك هو الذي يتيح لها التنامي والسيطرة وبخاصة في غياب قوى متحرّرة ومتطوّرة تتصدّى بفعالية للأوضاع المذكورة. وقد لا يحتاج إلى تدليل أنّ ما آلت إليه هذه الأوضاعُ يعود بشكل رئيس إلى الاجتياح الإمبريالي للمنطقة العربية ومن ضمنه إنشاء الكيان الصهيوني العدواني في قلبها. إن الأصولية الإسلامية أكانت نظام حكم (كالسعودية) أم حركات (كالأخوان المسلمين) في هذه المنطقة أو خارجها (كأفغانستان) حظيت برعاية ودعم القوى الامبريالية مادامت تخدم مصالحها وتناوئ أعداءها. وإذا كان المثقف الواعي يقف ضدّها بقدر ما تمثّل من انغلاق وتعصّب وظلامية وقمع، فإنه لا يمكن أن يكون ضدّها في مواجهتها للعدوان الصهيوني. إنها في النهاية أحد المرتكزات الأخيرة التي يلجأ إليها شعبٌ في مجابهة ما يتعرّض له من اغتصاب أرض وتقتيل وتسلّط وانتهاك كرامة وتهديد لهويته الوطنية والقومية بالاندثار ولقيمه ومعتقداته الدينية بالامتهان. فهي وسيلة دفاع عن الذات وليست (في معطى الصراع العربي ـ الإسرائيلي) في موقع التعدّي. ويجدر بالمثقف العربي المتنور الذي يجد فيها خطراً على الحريات والتطوّر في بلاده ألاّ يتخاذل، فيترك لها ساحة النضال لتهيمن حقاً عليها وعلى المجتمع، بل عليه أن يتجاوزها في مجابهة هؤلاء الأعداء مبدياً فعالية أشدّ في عملية التحرير على جميع المستويات. أما أن يبادر إلى

التخاذل والإحباط فإنّه يسهم بذلك في تدعيم العنصرية الصهيونية والأصولية الإسلامية في آن، وبخاصة عندما تكون الحرب قائمة والأرض محتلة والاعتداءات يومية والمقاومة في فلسطين وجنوب لبنان ناشطة وإمكانات التحرير متوفّرة. وهذا بالتحديد ما يقوم به أدونيس: فهو يفترض أن هذا «السلام» ـ المعقود بين «أنظمة» التمييز العنصري والتبعية ولا يؤمّن برأيه الشرط الذي «لا بدّ منه» لبلوغ «الدولة التعدّدية الديمقراطية» ـ قد يتيح «للعرب أن يتعرّفوا بمزيد من العمق على نفوسهم وقدراتهم، وربما أتاح لهم أن يفجّروا طاقات أخرى خلاّقة كانت مكبوتة فيهم أو مغيّبة» (ص٥). كأنّ مقاومة الاحتلال الصهيوني العنصري والنضال ضدّه وضد أنظمة الاستغلال والقمع العربية المتواطئة معه، والسعي لبناء مجتمع قائم على العدل والمساواة، تعوق تعرّف العرب على أنفسهم وتفجيرهم طاقاتهم! وكأن ما يكبّل العرب ويهدّد وجودهم ذاته ليس الهيمنة الإمبريالية على بلادهم ونهبها لثرواتهم وتخريبها لعوامل نموّهم، ورعايتها اغتصابَ الصهاينة لأرضهم وتدميرهم لمقوّمات عيشهم، وحمايتها لأنظمة عربية تخدم مصالحها وتنكّل بشعوبها!

وكما كان الأمر بالنسبة للسلام يتعرّض أدونيس لمسألة «التطبيع الثقافي» عامداً إلى التحريف والتحوير. فرفض «التطبيع الثقافي» هو موقف سياسي لمجموعة كبيرة من المثقفين العرب تجد أن «اتفاقات السلام» منافية للحق والعدل ومتناقضة مع مصالح الشعوب العربية. وهي إذ ترفضها ترفض بالتالي أن تتخلى عن عدائها لهذا الكيان وتستمر بمقاطعته وإدانة التعامل معه. ولأنها لا تتمكن من التحكم بالقرار السياسي أو الاقتصادي أو العسكري في بلادها فهي تسعى عبر مواقفها في المجال الثقافي إلى التعبير عن ممانعتها لما يجري وإدانتها له وتجنّبها أن تُستخدم في تأييده وتسويغه، ساعية عبر ذلك للتأثير على الرأي العام العربي للعمل على إطاحة الاتفاقات المذكورة وتدارك مثيلاتها، أو على الأقل للتذكير بالمبادئ الإنسانية والقيم الثقافية والمصالح القومية التي يجري انتهاكها وتشويهها عبر هذه الاتفاقات. برز هذا الموقف في مصر حين وقّعَتْ حكومتُها اتفاقيات كامب ديفيد مع إسرائيل؛ وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً على هذا التوقيع وما تبعه من «تطبيع» سياسي ودبلوماسي واقتصادي، فإن معظم المثقفين المصريين ومعهم غالبية النقابات المهنية يرفضون «التطبيع» مع الكيان الصهيوني ويقاطعون أي نشاط مشترك مع الإسرائيليين ويحظرون السفر إلى إسرائيل وأي شكل من أشكال التعامل معها معبرين في ذلك عن تيار شعبيّ قويّ وفاعل رافض لهذه الاتفاقيّات. وقد انتهى الأمر بالاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب أن يتبنّى في مؤتمره الثامن عشر في عمان عام ١٩٩٢ ميثاق شرف للمثقفين العرب يؤكد على رفض لـ«التطبيع الثقافي» مع العدوّ الصهيوني مماثل للرفض المصري. هكذا لا يكون هذا الموقف نوعاً من السياسة السطحية الإعلامية كما يعرّض به أدونيس (ص٤) بقدر تناوله لقضية سياسية محورية تمسّ الأبعاد الحضارية والثقافية للأمة العربية في وجودها وفي مستقبلها؛ ولا يكون «من خارج الثقافة» كما يدّعي أدونيس (ص٤) بل من صلبها بقدر التزامه بقيم الحرية والعدالة والمساواة؛ كما لا يكون تغطية لأنواع أخرى من التطبيع كما يتّهم أدونيس (ص٤) بل هو فضح لمختلف أنواع التطبيع وتعبير عن إدانتها جميعاً وتمسّك بهذه الإدانة...

إن رفض «التطبيع الثقافي» مع الكيان الصهيوني يتقدّم على هذا النحو جزءاً من رفض شامل لهذا الكيان ويندرج في سياق الصراع الشامل معه، ومن ضمنه المقاطعة الاقتصادية والدبلوماسية والسياحية والإعلامية... التي شكّلت جزءاً من عملية كلية ترمي إلى عزل العدوّ الصهيوني وإضعافه وفضحه وتأليب الرأي العام العالمي عليه. وهو ما أخذت به حركات تحرُّر عديدة وبلدان عدّة في مساعيها لتحقيق أهدافها السياسية. وإذا كانت دعوة المؤتمر الوطني الأفريقي ومن ثمّ منظمة الوحدة الأفريقية إلى مقاطعة نظام التمييز العنصري في أفريقيا الجنوبية نموذجاً إيجابياً على ذلك، فإن ما تمارسه الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها ضد كوبا والعراق وليبيا اليوم نموذج آخر سلبي عليه. ولم تكن المقاطعة العربية التي كانت الدول العربية جميعها تأخذ بها إلا وجهاً من أوجه الصراع الذي كانت تلتزم به ضد «إسرائيل». وإذا كانت هذه المقاطعة قد عرفت تخلخلاً منذ معاهدة الصلح بين مصر و«إسرائيل» عام ١٩٧٩ فإنّ معظم الدول العربية لاتزال تأخذ بها حتى اليوم... وإنْ صحّ القول إن هذه الدول لم تُقْدِم على ذلك اختياراً وإنما خوفاً من شعوبها ومن المدّ القومي التحرري الذي كان يجتاح المنطقة في تلك المرحلة. كما قد يصحّ القول إن تضعضع هذه المقاطعة اليوم ـ بل توجّه أنظمة عربية عدّة لإنجاز «اتفاقات سلام» مع «إسرائيل» و«للتطبيع» الكامل معها ـ يعود إلى تراجع حركة التحرّر العربية وبخاصة الفلسطينية منها، وإلى تردّي الشعوب العربية على المستوى السياسي والاجتماعي والمعيشي دون أن تكون الإمبريالية غائبة عن مسبّباته كما يمكن لأوضاع العراق الراهنة أن تقدم نموذجاً ساطعاً على ذلك.

ويستكمل أدونيس تحريفه بالقول إنّ الرافضين «للتطبيع الثقافي» يقبلون بـ«كل الجوانب الأخرى للتطبيع» (ص٤) على الرغم من الموقف الواضح لهؤلاء المنتقدين وعلى رأسهم الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب فخري قعوار الذي لم يكفّ عن التذكير بأحكام النظام الداخلي للاتحاد وبفقرات ميثاق المثقفين العرب الذي أقرّه المؤتمر الثامن عشر للاتحاد، وجميعها تؤكّد الإصرار على مجابهة الحركة الصهيونية وكيانها العنصري في فلسطين ورفض جميع

أشكال التطبيع مع هذا الكيان[٦٧]. فعلى العكس مما يدّعيه أدونيس لا يغطّي الموقف الرافض «للتطبيع الثقافي» «جميع أنواع التطبيع الأخرى» (ص٤) مع «إسرائيل»، بل يمثّل جزءاً لا يتجزّأ من رفض هذه الأنواع جميعها، وبالتالي لا يصح قول أدونيس إن هذا الرفض إيهام وشعار تعويضي و«إلهية جديدة للكتّاب العرب، تبدّد طاقاتهم عبثاً وتمزّقهم» (ص٤). إنه على العكس من ذلك موقف مرحلي لمثقفين عرب في مواجهتهم السيرورة السلمية التي تندرج فيها أنظمتهم في علاقتها مع الكيان الصهيوني. إنه شكل من أشكال المقاومة للتهافت والإذعان والتبعية التي تسم علاقة هذه الأنظمة بالكيان المذكور وبالولايات المتحدة الأميركية، ودعوة للصمود واستمرار النضال ضد هذا الكيان العنصري والداعمين له. وفي تقديم أدونيس له على هذا النحو نوع من الاستخفاف والسخرية وشكل من أشكال التشويه والتهويل بغرض الإزراء به وتهديمه والترويج بدلاً منه للموقف الانهزامي.

لا يخفّف من انهزامية هذا الموقف ما يحاول أدونيس أن يدخله عليه من تزويق وما يلحقه بالموقف المقاوم «للتطبيع» من اتهامات باطلة. فهو يسعى من جهة إلى الإيحاء بأن الرفض «للتطبيع الثقافي» هو دعوة إلى الانكفاء الثقافي مكرراً أنه «لن يكون إلا تتويجاً للانكفاءات الأخرى» وبأنه ناتج عن تصوّر أصحابه لخطر «ذوبان الثقافة العربية» في ثقافة أقلية، معلناً أنه «خوف وهمي» (ص٥)، ومن جهة ثانية إلى تأكيد أن الثقافة العربية تشغل «موقعاً أساسياً» بين مراجع الثقافة في المجتمع الإسرائيلي و«ربما كانت لها قدرة خاصة على اختراق هذا المجتمع» (ص٥).

لا يفصح أدونيس عن ماهية «الانكفاءات الأخرى» التي يتوّجها «الانكفاء الثقافي». لكن ذهاب الظن إلى أنه يقصد من بينها الانكفاءات العسكرية والسياسية التي تجسّدها اتفاقيات الصلح مع «إسرائيل» يجعل «الانكفاء الثقافي» مرادفاً «للتطبيع الثقافي» الذي يمارسه ويدعو إليه، علماً أن رافضي التطبيع الثقافي لم يقولوا على الإطلاق بالانكفاء. فكما لا يعني، على سبيل المثال، رفضُ إقامة علاقات دبلوماسية مع دولة ما رفضَ جميع العلاقات الدبلوماسية الأخرى أو عدم السعي لتقوية هذه الأخيرة وتدعيمها، كذلك لا يصحّ أن يُماهَى بين رفض «التطبيع الثقافي» مع العدوّ الصهيوني والانكفاء الثقافي؛ بل قد يكون هذا الرفض الثقافي، مثله مثل الرفض الدبلوماسي الآنف الذكر، دافعاً لمزيد من الانفتاح ومحرّضاً على توسيع آفاق البحث والاكتشاف. على أن الانكفاء الثقافي الفعلي، هو ذاك الذي تفرضه «إسرائيل» والدول الإمبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية على البلدان العربية، لا في تقتيلها لشبابها ومثقفيها وتدميرها لمنشآتها ومؤسساتها الحضارية وتجويعها لشعوبها وحسب، وإنما أيضاً في دعمها لبعض الحركات المنسوبة للأصولية الدينية المتعصّبة وفي حرصها على عدم تجاوز هذه البلدان لتخلفها العلمي والتكنولوجي بحرمانها من الوسائل والمعلومات الحديثة المتطوّرة ووضعها للضوابط التي تحول دونها ودون بلوغها، وباستقطابها للكفاءات والعناصر المتخصّصة من أبنائها إلى جانب نهبها ثرواتها وإثارة الحروب الأهلية فيها والتعاون أو التواطؤ مع أنظمة القمع والاستبداد المسيطرة عليها. ورافضو «التطبيع الثقافي» إنما يرفضون هذا الانكفاء بالذات، وهم على حد علمي لم يدعوا إلى «الانكفاء الثقافي»، تماماً كما لم يعلنوا خوفهم من خطر ذوبان الثقافة العربية في «ثقافة أقلية» كما يدّعي أدونيس[٦٨] ليتيح له ذلك الردّ بأن هذا الخوف وهمي، وبأن الخوف الحقيقي ينبغي أن يصدر من الجانب الإسرائيلي المعرّض للاختراق من قبل الثقافة العربية. إذا كان التلفيق واضحاً في اختلاق المسائل فإن الغاية منه هي حض المثقّفين العرب على الانخراط في «التطبيع الثقافي» لدعم «اتفاقيات السلام» بين «إسرائيل» والأنظمة العربية. إذ لمّا لم يحصد العرب من «الحرب على إسرائيل» كما يقول أدونيس غير دمارهم «المتواصل» فإن «السلام مع إسرائيل» يعدهم باختراق ثقافتهم لمجتمعها (ص٤ - ٥)؛ والنتيجة الضمنية ضرورة إيقاف العرب لهذه الحرب ومسارعتهم إلى هذا «السلام» وأهمية أن يكون مثقفوهم في طليعة الآخذين به والمساهمين فيه.

ومع أن معنى الاختراق هنا يبقى غامضاً، ومفهوم الثقافة العربية عاماً، فإن الإخراج بأكمله لا يخلو من مفارقات قد يكون أولها أن هذه الثقافة موجودة أصلاً في «المجتمع الإسرائيلي» بل تحتل «موقعاً أساسياً» في مراجع ثقافته كما يقول أدونيس نفسه (ص٥). كما قد يكون منها أن تعتبر أسباب الخوف من «التطبيع الثقافي» قائمة في الكيان الصهيوني ويصرّ حكّامه مع ذلك عليه كما يظهر من شكاويهم المتكررة لنظرائهم المصريين من مواقف المثقفين المصريين ناهيك بقطاعات واسعة من الشعب المصري المعارضة للتطبيع. إلا أن المفارقة الكبرى قد تكون في الرهان المقترح على اختراق الثقافة العربية المجتمع الإسرائيلي في الوقت الذي تتقدّم فيه هذه الثقافة مع أدونيس على هذا النحو. بيد أن هذه المفارقة قد تصبح مفهومة على ضوء الدور الذي يراه أدونيس للمثقف العربي في

---

(٦٧) راجع الهامش ٥٧ أعلاه.

(٦٨) راجع الفقرتين الثالثة والرابعة من ميثاق المثقفين العرب الذي سبقت الإشارة إليه حيث يجري التأكيد على رفض القطرية والإقليمية والطائفية، وإدانة القوقعة والتبعية، والاعتراف بأهمية المساهمات المسيحية واليهودية في الثقافة العربية الإسلامية..

هذه المرحلة: فحسب أدونيس «أن الخطوة الأولى في الدور الذي يجب أن يلعبه المثقف العربي، في هذه المرحلة، هي أن ينظر إلى الثقافة العربية» على أساس أنها «مسألة كيانية لا مسألة وظيفية» أي أن يرى إليها «بوصفها تأسيساً، لا بوصفها إعلاماً» (ص ٥). هذه النظرة أقرب ما تكون إلى الشعار العام الذي إن صحّ الأخذ به لا يصدق على «هذه المرحلة» بالذات وإنما على تاريخ مديد من نشاط المثقّفين العرب وغير العرب. على أن الإعلام جزء لا يتجزأ من هذا النشاط وعنصر مكوّن من عناصر الثقافة، ولا يصحّ نفيه وإن كان يصح تأخيره أو تقديمه في سلم أولويات هذه العناصر بناءً لميزات المرحلة المعينة وخصوصياتها. كذلك هو الأمر بالنسبة لما يبدو مرادفاً لهذه الخطوة وهو «نقطة البداية في عملنا الجديد»؛ فهذه الأخيرة هي حسب أدونيس «إعادة النظر، جذرياً، في ثقافتنا ـ نظراً وممارسة» (ص ٥). والحقّ أن إعادة النظر هذه مطلوبة باستمرار ولا تختص بمرحلة دون أخرى، وأدونيس نفسه يذكر أن الثقافة الخلاّقة «إعادات نظر وتساؤلات، واستقصاءات، وزلزلة دائمة للمستقر» (ص ٤) والنظر في صحة جعلها، وهي أحد شروط العمل الثقافي، «نقطة البداية» لا النقطة التي تليها بعد المعرفة الواعية أو الكشف الجديد، يفترض تحديد المقصود بـ«عملنا الجديد» أي تحديد المرحلة التاريخية ودور المثقف العربي فيها.

في هذا التحديد بالذات ينتقل أدونيس من الشعارات العامة إلى تبنّي رؤية معيّنة للمرحلة تفضح الموقع الذي يختاره ويدعو الآخرين إلى ملاقاته فيه. ففي زمن الحرب والاحتلال والمقاومة واتفاقيات الصلح بين الأنظمة العربية والكيان الصهيوني يحدد أدونيس موقعه إلى جانب هذه الاتفاقيات من خلال اعتباره المرحلة مرحلة «سلام» والمسألة المطروحة فيها «هي الحوار» (ص ٥). وهو يعيّن «دور الكاتب العربي» في هذا «السلام» بأنه «هجومي» قائم على الإيمان بقدرة الثقافة «على اختراق المجتمعات المغلقة»، فهذا بالنسبة إليه «هو التحدّي الحقيقي الذي يواجه المثقفين العرب اليوم» (ص ٥)!.

على هذا النحو يسفر الادّعاء الطنّان بالإيمان بالثقافة العربية والدعوة الصاخبة للمثقفين العرب إلى إعادة النظر الجذرية فيها، عن سعي لتدجين سياسي، وهو ما يفسّر أهم المفارقات التي يحفل بها طرح أدونيس المتعدد الأوجه؛ وهو طرح يلقى قبولاً لدى أوساط متزايدة الاتساع في أوساط المثقفين العرب بقدر ما يتآلف مع الحملات الإعلامية الناشطة والمواكبة لاتفاقات الصلح بين الكيان الصهيوني والأنظمة العربية بكل ما تتمتّع به من قدرات وإمكانات شديدة الضخامة والخطر، وبقدر ضمور دور القوى الثورية والمتحررة من جهة وتنامي دور القوى السلفية والأصولية والمحافظة من جهة ثانية.

استجلاء وتصويب

ليس هناك على الأرجح شعوب أو دول أو قوى تميل مبدئياً إلى الحرب، أو تفضّل الحرب على السلام. والحروب التي تقع تنشأ وتتطوّر بتأثير دوافع ومصالح مختلفة ولتحقيق أهداف معينة. وإذا كان العالم قد عرف حروباً إمبريالية عدوانية، فقد عرف كذلك حروباً شعبية تحريرية. وليست الأطراف العربية المعارضة لاتّفاقيات الصلح الجارية مع الكيان الصهيوني ضد السلام، بل قد يكون أكثرها جذرية في مواقفه أكثرها تعلّقاً به وتطلباً له. وأولئك الذين

المعارضون العرب أشد الناس تطلّباً للسلام الحقّ، لا «هذا السلام

يحاربون العدوّ الصهيوني المحتلّ ويبذلون حياتهم لصد عدوانه إنما يفعلون ذلك لا عن رغبة في حرب فُرضتْ عليهم بل بحثاً عن سلام يرجون بلوغه. المسألة الخلافية هي **هذا السلام** بالتحديد. فالقائمون باتفاقيات الصلح مع الكيان الصهيوني والدّاعمون لها والموافقون عليها يعترفون بهذا الكيان العنصري الاستيطاني في فلسطين ويسهمون أو يقبلون باحتلاله لأراضٍ عربية، ويقدّمون ذلك على أنه «السلام» بين العرب وإسرائيل. والرافضون لهذه الاتفاقيات لا يجدونها كذلك بل يعتبرونها استسلاماً يفرّط في الحقوق العربية في الأرض واستتباعاً يرتهن للمصالح الإمبريالية والاستراتيجية للولايات المتحدة الأميركية والكيان الصهيوني، ويرون السلام غير منفكّ عن الحق والعدل والحرية.

ليس المثقفون العرب والثقافة العربية بمنأى عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي وإشكالات الحرب والسلام فيه. وطبيعي أن تعرف صفوفهم آثاره ومضاعفاته. ويبذل الحريصون على نجاح اتّفاقيات الصلح مع الكيان الصهيوني جهوداً حثيثة لاستقطاب المؤيدين لهم وكبح وتهميش المعارضين. في هذا السياق يمكن إدراج احتفالات التوقيع على اتفاق «غزة ـ أريحا أولاً» في حديقة البيت الأبيض (في تشرين الأول ١٩٩٣) وفي ندوات الأونيسكو «الثقافية» الداعمة له (في كانون الأول ١٩٩٣ وفي أيلول ١٩٩٤...) وجوائز نوبل للسلام للسادات وبيغن ومن ثم لعرفات وراين وبيريز، و«نوبل للآداب» (نجيب محفوظ...) واصطناع أجهزة ومؤسسات إعلامية وفكرية (صحف ومجلات ومحطات تلفزة وجامعات...) وشخصيات علمية ودينية... لتسويغ هذه الاتفاقيات وترويجها. وقد انضم عديدون إلى هذه العملية وعارضها كثيرون واستنكف آخرون، ليتحدّد من خلال هذه المواقف المختلفة مواقع المثقفين العرب ومستويات وعيهم وشروط عيشهم وعملهم.

لقد أدّت هذه المعطيات إلى طرح متجدّد لدور المثقف في

مجتمعه وإزاء شعبه. وبرزت بحدّة مع جهر بعض أعلام الثقافة العربية بمواقفهم المؤيدة أو المعارضة مسائلُ تتعلق بالموقع الذي يجدر بالمثقف أن ينحاز إليه.

التهويل بدمار الحروب، والتغرير بأوهام السلام، من وسائل المعتدين الأقوياء إضعافاً لإرادة المقاومة لدى الشعوب!

إن «السلام» الذي تقدّمه اتفاقياتُ الأنظمة العربية مع الكيان الصهيوني هو سلامها وسلام عرّابها الولايات المتحدة الأميركية، لا السلام الذي تتطلّع الشعوب العربية إلى تحقيقه. لكن هذه الشعوب التي تتعارض مصالحها ومصالح القائمين بهذه الاتفاقيات تعجز، في غياب تنظيم وتطوير لطاقاتها وقادة أكفياء لها، عن الدفاع عن مصالحها وفرض سلامها. وعلى المثقفين المستقلين والمتنوّرين قبل سواهم تقع مسؤولية سدّ هذا النقص بدءاً من فضح حقيقة «السلام» المفروض. وصولاً إلى بلورة آفاق السلام الحقيقي المبني على الحق والعدل والديمقراطية، وتعيين الوسائل المختلفة المناسبة لإنجازه.

إن التهويل بدمار الحروب والتغرير بأوهام «السلام» من الوسائل التقليدية البالية التي لم ينفك المعتدون الأقوياء وعملاؤهم عن بثّها وترويجها إضعافاً لإرادة المقاومة عند الشعوب وقواها الطليعية، ودفعاً لها إلى الإحباط واليأس فالتخلّي والاستسلام. ولو لم تواجهْ حركاتُ تحرر وطني عديدة مثل هذه الدعوات الانهزامية لما تمكّنت من دحر العدوان على بلادها ونيل استقلالها وحريتها.

لقد دخلت فرنسا الجزائرة مستعمِرةً منذ عام ١٨٣٠ واضطرّت للخروج منها مرغمةً بعد مئة وإثنتيْن وثلاثين سنة بفضل النضال الشعبي العنيد، وبخاصة المسلّح، ضدّها وبفضل الحملة العربية والعالمية التي قادها المثقّفون الجزائريون، وبخاصة في فرنسا وبتعاون مع المتنوّرين والأحرار من مثقّفيها. كما استمرّ حكمُ الأقلية البيضاء الاستعماري في جنوب أفريقيا حوالي ثلاث مئة واثنتيْن وأربعين سنة قبل أن تتمكّن الأكثرية السوداء، بفضل نضالها الحثيث والتضامن العالمي الذي وفّرته له جهودُ مثقّفيها وحلفائهم الديمقراطيين في العالم كله، من إلغاء نظام التمييز العنصري ومن رفع مناضل أسود أمضى سبعة وعشرين عاماً من حياته في السجن إلى سدّة الرئاسة الأولى فيها. وقد تمكّن الڤيتناميون من تطهير بلادهم من المستعمرين الفرنسيين عام ١٩٥٤، ومن الإمبرياليين الأميركيين عام ١٩٧٥، بفضل كفاحهم الشعبي المسلّح والدعم العالمي الذي رفده، وكان للمثقّفين فيهما الدور القيادي والتعبوي البارز.

لم يمضِ على إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين أكثر من ستة وأربعين عاماً، وهي أعوام من الحروب بل الاشتباكات اليومية المستمرة، وهي لاتزال محتدمة حتى الساعة. وذلك يعني أن الحرب لاتزال قائمة. لقد عقدت أنظمة عربية اتفاقيات صلح مع هذا الكيان تتحمّل وحدها مهانته كما تتحمّل وحدها عار الهزائم التي عرفتها في الحرب بينها وبين إسرائيل. لكن النضال ضد الكيان الصهيوني لم يتوقّف، وهو لن يتوقّف بل ربما ازداد عنفاً وشراسة كلما ازداد وعي الناس بالظلم والذل والاستغلال حدّة. وإذا كان التاريخ مفتوحاً على كل الاحتمالات فالأرجح أن المستقبل لن يكون لصالح أنظمة القمع والاستسلام، بقدر ما يتعارض استمرارها مع مصالح الأغلبية الساحقة للشعب، ومع المبادئ الأساسية الأولى لحقوق الإنسان والمواطن. قد تجد هذه الأنظمة لها بعض العملاء والمرتزقة من المثقفين، إنما يبقى العديد من هؤلاء في موقع العداء أو عدم الموالاة لها، والإصرار على التصدّي للعدوّ الصهيوني وعلى التمسّك بأهداف التحرير[٦٩]. ورهان الأمة العربية الفعلي هو على هؤلاء الآخرين؛ فهم يمثّلون ضميرها ووعيها وأطر نضالها في الحرب المفروضة عليها. وإذا لم يكن النصر دانياً اليوم فإنه غير مستحيل غداً. وإذا كان ذلك يعني رفض المنطق الاستسلامي فإنه لا يعني التمسّك بأساليب ثابتة وجامدة للنضال. على العكس من ذلك: إنه يستدعي أساليب النضال واجتراح سبل جديدة له، مع أخذ المعطيات المستجدة والتطور المستمرّ عالمياً ومحلياً بعين الاعتبار. ولعلها هنا تكمن إحدى المهمات الأكثر حيوية الملقاة على عاتق المثقفين الثوريين والمتحررين، أو لعله «التحدي الحقيقي» فعلاً المطروح على المثقفين العرب اليوم. ولعل عدم الانصراف إلى هذه المهمة ممّا فات الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب الأخذُ به، وفات أمينَه العام فخري قعوار التركيزُ عليه. ففي المؤتمر الثامن عشر (في كانون الأول ١٩٩٢) أقرّ الاتحاد ميثاقَ شرف يرفض فيه أيَّ شكل من أشكال «التطبيع» مع العدوّ الصهيوني، كما أقرّ تأليف لجان في كل بلد من البلدان العربية لمقاومة «الغزو الثقافي» الصهيوني... لكنه لم يشفع ذلك بخطة ثقافية تطرح أولويات المواجهة وتتبنّى برنامجاً من النشاطات الثقافية الفكرية والإبداعية ملائماً لها. وفي حين كانت عمليات التطبيع على أكثر من مستوى تجري في أكثر من بلد، وتتّخذ في بعضها طابعاً احتفالياً لافتاً متخطّياً كل القرارات العربية الخاصة بمقاطعة «إسرائيل»، لم يتم حتى اليوم تكوين أيّ لجنة باستثناء تلك الموجودة أصلاً في مصر منذ معاهدة الصلح مع «إسرائيل» عام ١٩٧٩ وتلك المتعثرة التي أُعلنتْ في بيروت، ولم يقم الاتحاد العام أو أيّ اتحاد قطري أو محلي بمبادرة ثقافية لمواجهة هذا الاجتياح

(٦٩) راجع د. سهيل إدريس: «ثقافتان وواقعان» **الآداب** السنة ٤٢، العدد العاشر ـ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٤، ص ٢.

لم يبادر فخري قعوار إلى تنظيم حركة نقاش ثقافي واسع في القضايا التي تناولها السجال الذي أعقب احتجاجه على دعوة أدونيس إلى جرش.

التطبيعي الرهيب. وفي السجال الذي أثاره احتجاج الأمين العام على دعوة أدونيس إلى مهرجان جرش (عام ١٩٩٤) بقيتْ مواقفُ معظم الأطراف التي شاركت فيه في حدود الاتّهام والتكذيب والتنديد، ولم يغتنم فخري قعوار هذه الفرصة للمبادرة إلى تنظيم حركة نقاش ثقافي واسع حول القضايا التي تناولها هذا السجال. كان بإمكانه أن يظهر بيروقراطية أقلّ، فلا يتحصّن وراء موادّ النظام الداخلي للاتحاد على أهميتها، وأن يبدي ثقافة أكثر فيتصدّى كذلك للمسائل الجوهرية والإشكالية المتعلقة بقضايا التطبيع.. بدءاً من مفهوم التطبيع الثقافي وعلاقته بأنواع التطبيع الأخرى وأشكال التداخل والاستقلال بينهما وصولاً إلى طرق مقاومته مروراً بعلاقة الإبداع والفن والثقافة بالسياسة والاقتصاد والإعلام ووسائل الاتصال والتقنية الحديثة والأمن القومي، وعلاقة ذلك كله بالحريات الديمقراطية ومنها حرية الرأي والتعبير والنشر وتأمين شروط التعليم والدراسة والبحث وتحديث المناهج والتقنيات وتعزيز اللغة العربية وتحسين أدائها... وغير ذلك مما يصعب حصره وممّا يستدعي تنظيم ندوات ولقاءات وفتح حوارات علنية في وسائل البثّ الإذاعي والتفزيوني وفي الصحف والمجلات والنوادي والمؤسسات التعليمية والثقافية، بما يؤدّي إلى معرفة أسلم وأدقّ بالأوضاع الثقافية والاجتماعية القائمة وسبل تطويرها نحو الأفضل.

من المؤسف أن تبلغ أوضاعُ الثقافة العربية على أيدي بعض أعلامها هذا المستوى فتتّسم بالتخاذل من جهة وبالجمود من جهة ثانية. وهذا يسهم في جعل مهام المثقفين العرب المتمسّكين بالأهداف القومية والإنسانية أكثر تعقيداً وصعوبة. بيد أنه لا يجدر بضعف هؤلاء المثقفين ولا بجسامة مهامهم أن يدفعاهم إلى التخلّي أو أن يبرّرا التهاون. على العكس من ذلك ينبغي أن يكونا مدعاة مزيد من الاستنهاض والابتداع الملائم لكل ما يسهم في التغيير الشامل الذي يفترضانه. هكذا يؤكّدون الطابع «الهجومي» الفعلي لنضالهم ويكشفون الطابع «الانكفائي» الفعلي للمثقفين الآخرين. لعلّ النقاش المفتوح حول المسائل المذكورة أعلاه يسمح بالتوصل إلى نتائج إيجابية ملموسة بصددها، وعلى الأقل بإعادة بعض المثقفين النظر في تصوّراتهم ومواقفهم. فمعركة المثقفين في النهاية واحدة: ضد الصهيونية والأنظمة الإمبريالية والقمعية والظلامية. والخيار الأساسي المطروح عليهم في النهاية واحد: إما أن يكونوا طليعة تحررية فاعلة أو فجيعة التحاقية بالية.

بيروت

المَـرَايَـا

عبد العزيز الحاجي

...أَحْيَاناً،
يَحْدُثُ أَنْ أَنظُرَ في المِرْآة
فَأَرَى أَنْهَارَ الوَجْهِ تَفِيضُ بِلاَ جَدْوَى...
... مَا كَانَ يَظَلُّ هُوَ الآتِي
وأَنَا.. فِي النَّهْرِ الوَاحِدِ أَسْبَحُ مَرَّات

□□□

...أَحْيَاناً،
يَحْدُثُ أَنْ أَعْبُرَ فِي نَهْرِ الْـ«أَلْفِي»(*)...
وَأَحْلاَمِي أَفْلاَكٌ تَخْبِطُ فِي اللَّيْلِ بلا رايات،
فَأَرَى وَعْلاً مُغْتَبِطاً بِبَهاءِ الكَوْنْ وَأَنسام الغَابات
وَأَرانِي نَجْماً يَسْتَبِقُ الشَّمْسَ لِيُغْلِقَ أَبْوابَ اللَّيْلِ
وَيُشْرِع فِي وَجْهِ الصّبْحِ أَعَالِي الشُّرفات
فَتَلُوذُ بِعَيْنَيّ طُيُورٌ مَازالَ حُنَاتُ النَّوْمِ
يُغَالِبُ فِي أَعْيُنِهَا أَطْيافاً وَخيالاَت...

□□□

...أَخْضَرَ كانَ صَبَاحُ الرَّمْلِ وَكَانَ المَاءُ الآسِنُ
عَسَلاً يَمْرَحُ فِي الفلوَاتِ...
وأنا.. كُنْتُ نبيٌّ دُرُوبٍ كم شَرِبَتْ مِنْ دَمْعَةِ عَيْنَيَّ
وَأَغوَتْني بِبِحَارٍ وَمَسافَاتِ
تسكنني اليومَ وقدْ أَفِلَ النّجم،
صَفَعَتني أَقْنِعَة المِرآةِ
شابَ النَّهْرُ فَفَاضَ عَلى رُوحي طمْياً ونفَايات
... كُلُّ الأَنْهَارِ ارْتَبَكتْ بينَ يَدَيَّ وَمَا عَادَتْ بَوْصَلةُ القَلْبِ
دَليلَ نجاة.